مُؤَسَّسَة البَريد
في الدّولَة الإسلامِيّة علما وعملا

د. شريفة عزيزي(*)

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى دراسة مُؤَسَّسَة البَريد في الحَضَارَة العَرَبيّة الإسلامِيّة علما وعملا؛ فهي مُؤَسَّسَة مهمّة لها محطاتٌ مضيئة في تاريخ الحَضَارَة العَرَبيّة الإسلامِيّة.

لذلك سندرس جملة من المسائل الهامّة، بالاعتماد على خرائطَ ومصادرَ تَاريخِيّة توثقية هامّة.ففي المسألة الأولى سنركّز على تاريخ نشأة البَريد في الدّولَة الإسلامِيّة، وملامح الأنظمة البَريديّة المتعاقبة؛ وسنتطرق في المسألة الثّانية إلى مختلف الأدوار والوظائف التي نهضت بها مُؤَسَّسَة البَريد، إذ كان لها دور ريادي في توسّع الدّولَة الإسلامِيّة الجُغرَافِيّ وفي استقرارها السّيَاسِيّ وفي سلمها الاجتِمَاعِيّ، وأفرد لهذه المُؤَسَّسَة ديوان خَاصّ بها، امتدت جذوره إلى الحَضَارَتين البيزنطيّة والفارسيّة، وسرعان ما تطوّر من ديوان الخاتم إلى ديوان التّراسل فديوان البَريد وأصبح مقوّما أساسيا من مقومات ازدهار الدّولَة الإسلامِيّة. وكذلك ارتبط انهيارها بانهيار مُؤَسَّسَة البَريد.

(*)كلية العلوم الإنسانية والاجتِمَاعِيّة/ تونس .

وفــي مرحلــة ثالثة نســتعرض مختلــف أنواع تقنيّــات الشّــبكة البَريديّة المُســتَخدمة في ذلك العصــر، المتطوّرة وفق تطوّر حاجــة الدّولَة إلى إيصــال الأخبَار بتقنيّة مُســتَحدَثة وأكثر ســرعة، نذكــر منهــا: بريد الخيــل، البَريــد المجنّح، بريد المناور، وبريــد الجمّازات وغيرهــا. وقد اعتمدنا في دراستنا لهذا الموضوع على المنهج الوصفيّ التّحليليّ مُستفيدين في ذلك من مصادرَ ومراجعَ تَاريخِيّة لها علاقة مباشرة بموضوع الدّراسة.

الكلمــات المفتاحية: النّظام البَريديّ، التّطوّر، الوظيفة، الشّبكة البَريديّة، التقنيّات، السّكة، بَريدُ الخَيل، البَريد المُحنّح، المناور، الدّولَة، التّوسّــع، الاستقرار.

التمهيد:

الدَّولَة الإســلامِيّة نظام سِيَاسِيّ استحدث بعد ظهور الإســلام تحت مســمّى الخِلَافَة التي عرّفها ابــن خلدون في قوله «الخِلَافَــة هي حمل الكافة علــى مقتضى النّظــر الشّــرعي فــي مصالحِهم الأخرويــة والدّنيويّــة الرّاجعــة إليهــا... فهي في الحقيقة خِلَافَة عن صاحب الشّــرع في حراســة الدّين وسياســة الدّنيا»[1] وقــد اضطرَّتها الحاجة إلى سياسة الدّنيا لماّ توسّعت الفتوحات الإسلامِيّة إلــى إحداثِ نظــام سِيَاسِــيّ يمثــل أركان الدّولَة أسوة بالإمبراطوريّة الرّومانيّة المُقدّسة المُترامية الأطراف. وقد ذكر السير توماس أرنولد، في كتابه «الخِلَافَة» أوجهَ الشّــبهِ والاختلاف بين النّظامين فقــال: «إنّ كلا النّظامين يَســتندُ على قوّة الدّين، فكلاهُما دينٌ عالمــيّ يعمل على ضمّ العالم تحت لوائِه. بيــد أنَّ الإمبراطوريّة الرّومانيّة المُقدّســة، لــم تكن مُســتَحدَثة الوجــود بل كانت اســتمرارًا لإمبراطوريّةٍ وثنيّــة ســابقة...أما الخِلَافَة.. فهي نظــامٌ مُســتَحدَث وليــد الظروف والأحــوال التي نشــأة إثر ظهور الإســلام وبسط ســيادة العَرَب على بلاد فــارس، ومعظم بلادِ الدّولَــة الرّومانية الشّــرقية»[2]. إذن نشأة الدّولَة كضرورة اقتضتها أحوالُ المُســلِمين وكان عمرُ بن الخطاب أول من أدخــلَ نظام الدّواويــن، أخذهُ عن الفُرسِ فأنشــأ ديــوانَ الجُندِ وديوانَ الجِبايــة. وأضاف بنو أُمية ديوانيــنِ: ديوانَ الرّســائلِ وديــوانَ الخاتم الذي اتخذه معاويةُ بنُ أبي ســفيان وجعله أهمَّ ديوان في الدّولَة، وكانت مهمّةُ نوّابِه نسخَ أوامرِ الخَليفَة وإيداعَهــا الدّيوانَ بعد حزمِها وختمِها بشــمعٍ ثم تُختــم بختم صاحب الدّيوان. وقد أدخل عليه عبدُ الملكِ بن مروان تحســينات عدة وجعله أداة هامَّة في تســيير شــؤون المُلك، وفي العصر العَبَّاسيّ تَطوَّرت تقنيّات ديوان الختم ووســائله وتوسّعتْ وظائفه وعظمتْ مكانتُه وسُمّيَ «ديوان البَريد».

مفهوم البَريد

البَريد لغة: قدّم الرّازي تعريفا للبريد في مختار الصّحــاح فقــال: «البَريــد المرتب، يقــال: حمل فــلان على البَريــد، والبَريد أيضا اثنا عشــر ميلا، وصاحــب البَريد قد أبــرد إلى الأمير فهــو مُبرِد، والرّســولُ بَريد، قلــت قال الأزهــري: «قيل لدابَّة البَريدِ بَريد لســيره في البَريد، وقال غيره: البَريدُ البَغلــة المُرتبة في الرّبــاط، تعريب (بريددم) ثم

(١) مقدمة ابن خلدون، ص١٦٦.

(٢) Sir Thomas Arnold :The caliphate pp١٨-٩.

سـمي به الرّسـول المحمول عليها، ثم سميت به المسافة»[٣] .

«والبَريـد فـي الأصل البغل، وهي كلمة فارسـية أصلها (بريـده دم) أي محذوف الذنب؛ لأنَّ بغال البَريـد كانـت محذوفـة الأذناب، فعرّبـت الكلمة وخففت، ثم سـمي الرّسـول الذي يركبـه بريداً، والمسافة التي بين السّكتين بريدا»[٤].

وقـال الرّاجـز: «رأَيـتُ للمـوت بريدًا مُبْـردَا ». ويقولون لطائر الغرانق: «البَريد». لأنه ينذر قدَّام الأسد»[٥].

والبَريـد أيضًا: الرّسـل علـى دَوَابّ البَريد، وفي حديث أبي هريرة عن رسول الله (ﷺ) قال: «إِذَا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيدًا؛ فَابْعَثُوهُ حَسَـنَ الْوَجْهِ، حَسَـنَ الاسْـمِ»[٦] أي: إذا أرسلتم إليَّ رسولاً، وقال أيضًا: « إِنِّي لا أَخِيـسُ بِالْعَهْدِ»، وَلا أَحْبِسُ الْبُرُدَ»[٧] أَي: لا أَحبسُ الرّسـل الواردين عليَّ. قال الزّمخشري: «البُرْدُ سـاكنًا يعني جمـعَ بَرِيد، وهو الرّسـول، فيخفَّـف عن بُرُدٍ كرُسُـلٍ ورُسْـل كمـا قيل لدابة البَريد بَريدٌ؛ لسيرها في البَريد»[٨].

أما معناه الاصطلاحي هو أن يُجعلَ خيلٌ مُضمّرات في عدة أماكن، فإذا وصلَ صاحبُ الخبر المُسرع إلى مكان منها وقد تَعب فرسُـه، ركب غيره فرسا مُسـتريحا، وكذلك يفعل في المـكان الآخر حتى يصلَ بسرعة.

الأنظمـة البَريديّـة فـي الدّولَـة الإسـلامِيّة: النّشأة والتَّطور

١-نشأة البَريد في الدّولَة الإسلامِيّة

ترجـع نشـأة البَريد الأولى إلـى الفُرسِ الذينَ وضعوا نظامَ البَريـدِ وخَصَّصوا له دَوَابّ ميَّزوها بعلامة قصّ أذنابها.

وفـي القـرنِ السّـادس قبـل الميـلاد أنشـأ اليونانيـون نظامًا بريديًّـا متطـوّرًا اعتمدوا فيه قاعدة السّـرعة والطاقة القصوى للخيل والخيالة أثناء سيرها، فأنشـأوا محطات لاستراحة الدَوَابّ وتَغييرهـا بـدَوَابّ أخرى لاسـتكمال رحلة البَريد التي لا تتوقفُ ليلًا ولا نهارًا. وكانت طرق سـعاة البَريـد تختصر المسـافات والأوقات، والمسـافة التـي يقطعهـا السّـعاة يوميـا وقـدّرت بـ ٣٠٠ كيلومتر تقريبـا. ودجّجت طرق البَريد بالحراس والمراقبيـن وبمُخصّصات السّـعاة والخيول من المؤونة لتيسير مُهمة البَريد.

ثـم انتقـل نظـام البَريـد الى الرّومـان ومنهم إلـى ملوك العَرَب في الجاهليَّـة بطريقته البدائيّة المأخـوذة عـن البيزنطيّين، المتمثّلة في إشـعال النّار على قممِ الجبال. يقـولُ امرؤ القيس موثّقا معرفتَهم البريد:

ونادمتُ قَيصرَ في مُلكِهِ

فأوجَهَني وركبتُ البَريدا

(٣) الـرازي؛ محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح ، المكتبة العصريـة - الـدار النموذجية، بيروت – صيدا ، ج ١ ، ص ١٩

(٤) الزمخشري؛ محمود بن عمر، الفائق في غريب الحديث ج ١،ص ٩٢

(٥) ابن منظور؛ لسان العرب، مادة برد ٣/ ٨٤.

(٦) يُنظر: صحيح الجامع، ص٢٥٩.

(٧) ابـن منظـور؛ لسـان العرب، مـادة خيـس ٦/ ٧٤، (أخيس أي: لا أنقض العهد ولا أفسـده، من قولهم: خاس الشيء إذا فسد.)

(٨) الزمخشري؛ محمود بن عمر، الفائق في غريب الحديث ج ١ ص ٤٠٥.

إذا ما ازدَحَمنا على سِكَّةٍ

سبقتُ الفُرانقَ سَبقًا بَعيدا

ويؤكد قـول الرّسـول (ﷺ)على معرفـة العَرَب في صدر الإسـلام للبريـد: «إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوهُ حَسَـنَ الوَجه، حَسَنَ الاسم». وقد وظف النّبي بعد هجرتـه إلى المدينة من ينقل له أخبَار مكـة وقريـش. وعندما توسّـعت الدّعـوة خارج الجزيرة العَرَبيّة في أواخر العام السّادس للهجرة تضاعـف عدد الرّسـل وكانـوا جميعا مـن الثّقاة حملوا رسالته[٩] إلى الأمراء والملوك لدعوتهم إلى الإسلام بناء على التّوحيد الذي يجمع بين الدّيانات السّماوية. فبعث دحيَّة بن الكلبيّ إلى قيصرَ ملكِ الرّوم، وبَعَثَ عبدَ الله بن السّهمي إلى كسرى ملكِ الفُـرس، وبعثَ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ملكَيْ عُمان وبَعَثَ شُـجاع بن وهب الأسـدي إلى المُنذر بن الحارث ملكِ الغساسنة بالشام[١٠] .

مـن مظاهر اهتمام النّبي (ﷺ) بالبَريد ختمه للرسـائل أسـوةً بالعجم الذين «كانـوا لا يقبلونَ كتابًـا إلاَّ إذا كانَ مختومًا؛ لأنهم يَرَوْنَ ختم الكُتب فيه تعظيم للمكتوب إليه[١١].

(٩) يُنظـر كتاب حميدو اللـه ؛الوثائق للسياسـية للعهد النبوي والعهد الراشدي، ص..... .

(١٠) يُنظـر كتاب حميدو الله "الوثائق السياسـية للعهد النبوي والعهد الراشدي، ص....."

(١١) عـن أنس بـن مالكٍ (رض) أن نبي اللـه (ص) أَرَادَ أَنْ يَكْتُـبَ إِلَى رَهْطٍ أَوْ أُنَاسٍ مِنَ الأَعَاجِمِ، فَقِيلَ لَهُ: «إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُـونَ كِتَابًا إِلَّا عَلَيْهِ خَاتَمٌ. فَاتَّخَذَ النَّبِيُّ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، نَقْشُـهُ: مُحَمَّدٌ رَسُـولُ الله. فَكَأَنِّي بِوَبِيـصِ أَوْ بِبَصِيصِ الْخَاتَمِ فِي إِصْبَعِ النَّبِيِّ (ص) أَوْ فِي كَفِّهِ». أخرجه البخاري: كتـاب العلـم، باب ما يذكـر في المناولة وكتـاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان (٦٥).

– وختم الوثائق الرّسـميّة تقنيّة تعود إلى العصر الأخمينيّ أي تمتدُّ إلى قـرون عديدة بعد الميلاد، والنّظم البَريديّة الفارسـية وثيقـة الصّلة بالنظم البَريديّة في الإسلام، ويؤكّد هذا الاتصال التقنيّات البَريديّة المعتمـدة وكذلك المُصطَلَحات البَريديّة المُستَخدمة من طرف المُسلِمين.

٢-تطور نظام البَريد في الدّولَة الإسلامِيّة

يذكرالمُؤَرّخون أنَّ خبـرَ وفاةِ أبي بكرٍ الصّديق، وتوليـة عمر رضي اللـه عنهما، وعـزل خالد بن الوليد عن قيادةِ الجُند وتولية أبي عبيدةَ عامر بن الجرّاح مكانه، وافى المُسلِمين أثناءَ قتالِهم للروم في واقعةِ اليرموك[١٢].

وأثنـاء الفتوحات الإسـلامِيّة حمـلَ الجُند على عاتقهم إلى جانب واجب الجهاد عبءَ نقل البَريد، و «كان الخَليفَة عمر يتلقَّى بصفةٍ منتظمة رسولاً من جيوشِ المُسلِمين المحاربة «وكان على اتِّصال دائـم بالجيوش، بل حَثَّهم على أن يُخْبِرُوا عن كل ما يُصادِفون، وأنْ يَصِفُوا كلَّ ما يُشـاهدون, لكي يحـسَّ بأنه يَحيا بينهم, ويشـاطرهم مصاعبَهم, ومـا يُحَقِّقُـون من انتصـارات، ولكي يُقَـدِّمَ لهم النّصح والإرشاد حين الحاجة»[١٣].

(١٢) مَعْرَكَـةُ اليَرْمـوُك، وقعت عام ١٥ هـ (٦٣٦) بين المسلمين والروم (الإمبراطورية البيزنطية)، ويعدّها بعض المؤرخين من أهم المعارك في تاريخ العالم لأنها كانت بداية أول موجـة انتصارات للمسـلمين خارج جزيـرة العرب، وآذنت بتقدم الإسلام السريع في بلاد الشام. المعركة حدثت بعد وفاة الرسول محمد (ص) بأربع سنوات.

(١٣) مجدلاوي؛ فاروق الإدارة الإسـلاميّة في عهد عمر بن الخطاب، ص٢٢٨، ٢٢٩.

وكان معاوية «أول من أدخل نظام البَريد في الإسلام على هذا النّحو المُقَنَّن؛ حيث وُضِعَ ديوانٌ للخاتم لتنظيم البَريد وإحضارِ عمّال من الرّوم والفرس لهذا الغرض»[١٤].

وانتظم البَريد في عهد عبد الملك بن مروان إذ خصّص له مبالغ طائلة من بيت المال لتطوير طرق البَريد وتهيئة دَوَابّ أكثر سرعة وكفاءة للاستخدام (الخيول المُضمَّرة والمُحسنة السّلالة)، ودعمَه بشبكة من العيون التي تنقلُ له أخبَار الدّولَة الواسعة المُترامية الأطراف وجعله أداةً هامّة في إدارة شؤون الدّولَة.

وقد أُثِر عنه قولُه لابن الدّغيدية: «ولّيتك ما حضرَ بابي إلا أربعة؛ المُؤذّن فإنّه داعي الله تعالى فلا حجابَ عليه، وطارقُ الليل فشرُّ ما أتى به، ولو وَجَدَ خيراً لنام، والبَريد، فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبْه، فربَّما أفسدَ على القومِ سنةً حَبسُهم البَريدَ ساعة، والطعامُ إذا أدركَ، فافتحْ البابَ، وارفع الحجابَ، وخلِّ بين النّاسِ وبينَ الدّخول»[١٥].

واتَّسعتْ شبكة البَريد في عهد الوليدِ بن عبد الملك باتّساعِ الدّولَة الجُغرَافِيّ وتقدمها العمرانيّ، «وبلغَ من أهميّة البَريد في عهده أن حُمِلَ على ظهورِ دَوَابّه الفُسيفساء (الفصّ المُذَهَّب) من القُسطنطينيّة إلى دمشقَ، حتّى صُفِّح منهُ حيطانُ المَسجدِ الجامع بها، ومساجدَ بمكةَ والمدينةِ والقُدس» [١٦] .

(١٤) القلقشنديّ؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٤١٣/١٤.

(١٥) القلقشندي، صبح الأعشى ٤١/١٤.،

(١٦) المصدرُ نَفسُهُ.

إلا أنّ انهيارَ مُؤَسَّسَة البَريد كان إيذانا بانهيار الدّولَة الأُمَويّة، وقيام الدّولَة العَبَّاسيّة التي اعتمدت في ذلك على قطع الأخبَار عن الأُمَويّين وبثّ العيون التي مكَّنتهم من السّيطرة على مفاصلِ الدّولَة ثم الإطاحةِ بها.

ويَذكرُ ابنُ كثير « في أحداث سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٢م) أنّ الخَليفَة المهدي أمرَ بإقامة البَريدِ بين مكةَ، والمدينةِ، واليَمنِ، وأنّه لم يفعلْ أحدٌ هذا قبلَ هذه السّنة[١٧].

وفي عهد أبي جعفر المنصور أصبح البَريد ديوانًا هامًّا من دواوينِ الدّولَة، واضطلع بمهمة نقل أحكام القضاة وموارد بيت المال وأسعار السّوق، إضافة إلى مراقبة الولاة والتجسس على الأعداء ونقل أخبَار أطراف الدّولَة إلى الخَليفَة الذي اعتبر صاحب البَريد أهم ركن من أركان الدّولَة ولا يصلح الملك إلا بهم وهم: القاضي وصاحب الخراج وصاحب الشّرطة مفضّلا صاحب البَريد الذي ينقل له خبر هؤلاء على الصّحة.

ويذكر الطّبريّ أن صاحب البَريد في حضرموتَ أخبرَ المنصور بأن الوالي يُكثر من الخروجِ إلى الصّيد فعزله.

وكانت رسائل البَريد تصل إليه مرتين يوميا في الصّباح وبعد صلاة المغرب، وعليها يخط سياسته اليومية..

و« أحاط هارون الرّشيد دولته بشبكة دقيقة من خطوط البَريد؛ ليتوخَّى السّرعة في تلقِّي الأخبَار، وإصدار الأوامر إلى وُلاَتِهِ، وقُسِّمَتْ هذه الخطوط

(١٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص /١٥٨.

إلــى محطــات، وفــي كل محطة يوجــد عدد من العمــال والخيل، وكلُّ ما يحتــاج إليه عامل البَريد من زادٍ، وعلف، ومياه»[١٨].

واهتــمّ عمر بن عبد العزيز أيضًا بتنظيم البَريد؛ فأنشأ المحطات والخانات وأقام أحواض السّقيا، ومخــازن العلــف للــدَوَابّ فــي كل طــرق البَريد ومسالكه.

وفي العصر العَبَّاسيّ تطوّر نظام البَريد تطورا كبيرا وأطلق عليه ديوان «الخرائط»لمعرفة رجال البَريد بالتضاريس الجُغرَافِيّة للبلاد وتخصّصهم في رســم الخرائط، وكان له علاقة مباشرة بتقدم علم الجُغرَافِيا وشق الطّرق ورصدها.

وقد واجه البَريد الاعتداءات المتكررة من البدو وقُطّــاع الطّــرق لنقله الأموال إلــى جانب الأخبَار كما تعرضــت طرق البَريــد مرارا إلــى التّخريب لاعتبارهــا مقومًا هامًا مــن مقوّمات قــوة الدّولَة وبســط نفوذها.. وارتبط تأميــن الطّرق البَريديّة بازدهــار العديد من الأنشــطة كالتجــارة والحج والرّحلات العلمية.

وبلــغ نظام البَريد على أيدي بني بويه (٣٣٤-٤٤٧هـــ) مبلغا عظيما من الدّقة والســرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل ســليمة إلى قصورهم، وكان المقصــر في واجبه من رجال البَريد يعاقَب بأشدّ العقوبات..

كمــا لعــب البَريــد دورا هاما في اســتقالة ابن طولــون والي مصر عن الدّولَة العَبَّاســيّة إذ أزاح صاحب البَريد العَبَّاســيّ في مصر وقرّب صاحب البَريــد في بغداد. الأمــر الذي مكّنه مــن الاطّلاع علــى مــا يحاك ضــده من مؤامــرات فــي بغداد، فقرر الاســتقالة عنها، وتمّ له ذلك بفضل البَريد. وتواصــل الاهتمــام بالبَريد في الدّولَــة الفاطمية التي امتدّ ا حكمها إلى المحيط الأطلسي.

ووظف صــلاح الدّين الأيّوبى شــبكة خطوط من البَريــد لربــط مركــز الدّولَــة الأيوبيــة، بالقاهرة والإســكندرية وقوص وميناء عيذاب على ســاحل البحــر الأحمر ودمياط وغزة. وكان يُشْــرِفُ عليه صاحب ديوان الإنشــاء، فأصبح البَريد في عهده يصل إلى مصر مَرَّتَيْنِ في الأسبوع.

أمــا الظاهر بيبــرس فــي الدّولَــة المَملوكية فقد اشــتُهر باهتمامــه الفائق بالبَريــد، حتى صارت أخبَــار المملكــة تصلــه مَرَّتَيْنِ أســبوعيا، ومكنه البَريــد مــن التّحكــم بالعــزل والولاية في ســائر المملكة.

واســتمر التّواصــل بين القاهرة ودمشــق حتى خــرّب تيمورلانــك البَريــد ودخــل دمشــق ســنة ٨٠٣هـــ .

ونظــرا لأهمّية البَريد اهتم كُتّاب الخَراج والنّظم الدّيوانيــة بالبَريــد، فقُدامةُ بن جعفــر في كتابه «الخَــراج وصناعــةُ الكِتابــة» تحدَّثَ عــن ديوان البَريــد، وذكر فيه مُهمّة صاحب البَريد وشــروط توليتــه، وفصّــلَ القول فــي ذلك، وتحــدّثَ كذلك عــن المحطّــات والطــرق البَريديّــة التــي تربط بغــداد بمختلــفِ الجهات شــرقًا وغربًا وشــمالًا وجنوبًا وحدّد بالفراســخ والأميال المسافاتِ بين المحطات وأطــال الحديث في ذلــك. وفي تقدير الفقهاء وعلماء المَســالك تبلغ المســافة الفاصلة

(١٨) إبراهيــم علي القــلا: نظم الحضارة الإســلامية ص ١٠٥، ١٠٦.

بين محطتين أربعة فراسخ أي اثني عشر ميلًا، وفي كل محطة يوجد عدة خيول وعدد من السّائسين. ولا أحد يمكنه أن يركب خيل البَريد إلا بمرسوم سلطاني مما يدلّ على أهميّة ديوان البَريد في الدّولَة الإسلامِيّة.

٣-أصحاب البَريد

-أصنافهم

يُصنَّف البَريديّون في ديوان البَريد حسب مهامّهم البَريديّة، إذ يتألف الدّيوان من صاحب البَريد الذي يشرف على الدّيوان ويعيّن من قبل الخَليفَة وقد اختزل التّنوخي مَهامّ البَريد في قوله «البَريد ولاية جليلة خطيرة، ومتقلّدها يحتاج إلى جماعة كثيرة، وإلى موادَّ غزيرة، ومن جملة أعماله حفظ الطّريق، وبذرقتها[١٩]، وصيانتها من القُطَّاعِ والسُّرَّاق، وطروق الأعداء، وانسلال الجواسيس في البرِّ والبحر، وإليه تَرِدُ كُتبُ أصحابِ الثّغور، وولاة الأطراف، وهو يوصلها بأسرع ما يمكن من اختصار الطّرق، واختيار المراكب والرّاكب، وأصحاب البَريد للملوك بمنزلة العيون الباصرة، والآذان السّامعة، فإن أهمل الملك ذلك، ولم يكشف له حال أوليائه وأعدائه، انطوت عنه الأخبَار، ولم تستقم له السّياسة، بل لا يحس بالشرِّ حتى يقع فيه»[٢٠].

ومن أعمال أصحاب البَريد مراسلة مَنْ عَيَّنَهُ في هذا المنصب، وإخبَاره بكل المستجدات من الأحداث «فهم موظفون مُخْبِرُونَ، من أعمالهم إطلاع كبار الموظفين والأمراء والملوك على الأحوال العامة للمكان الذي يقع في ضمن عملهم واختصاصهم، وإخبَار الجهات المسؤولة عن الأعمال المشبوهة التي قد تُدَبَّر ضدّ الدّولَة، وعن تصرفات كبار الموظفين؛ خشية انفرادهم في الحكم، وإعلانهم العصيان على الدّولَة[٢١].

ونجد في المرتبة التّالية عمال البَريد، ومقرهم الولايات التّابعة للخِلَافَة، ويختصّون في جمع الأخبَار عن الولاة والرّعية.

وفي المرتبة الثّالثة نجد الفرونق: وهي كلمة من أصل فارسي وتعني الدّليل أو المنذر، مهمّتها تقديم تقارير مفصلة ومراقبة مسار الرّسائل وتنظيمها وإرسالها إلى دار الخِلَافَة وإرشاد رجل البَريد في الطّريق. ويحتل السّعاة البَريديّون المرتبة الرّابعة ويتميّزون بالخفة والرّشاقة والسرعة في قطع الأميال سيرا، وأكثر السّعاة من شبان الطّبقات الدّنيا لأنَّ المخصّصات المالية لهذه الوظيفة كانت وفيرة. كما عُيّن أفرادٌ في وظائف مختلفة ومهمتهم مساعدة عمّال البَريد ومنهم «المُرتّبون» وهم المسؤولون عن وضع محتوى البَريد في الحقائب، و«الموقّعون»مهمتهم التّنسيق بين فرسان البَريد وتحديد موعد انطلاقهم وكذلك الوكلاء والمخبرون.

ولتمييز رجال البَريد عن العامة من النّاس علّقت على كتف كل موظّف بريدي شارة في حجم كفّ اليد، تمكّنُ رجال الدّولَة من التّعرّفِ على صاحبها لتقدم له المساعدات اللازمة لأداء

(١٩) البذرقة: الخفارة أي الحراسة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بذرق ١٠/ ١٤.

(٢٠) التنوخي؛ الفرج بعد الشدة ، ج١، ص٥٠ .

(٢١) الطرطوشي، سراج الملوك ص٤٩.

مهمّته. «وكانت علامات رسل البَريد في الخِلَافَة العَبَّاسيّة قطعة من الفضة بقدر الكفّ كتب على وجهيها البسملة واسم الخَليفَة والوجه الثّاني قول الله عز وجل « إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا »[٢٢].

وكانت تقاريرهم ترد للخليفة العَبَّاسيّ على هيئة رزم بريدية مرتبة على أشكال أسطوانية مختومة بالشمع الأحمر. ولم يكن العمل في البَريد متاحا لعامة النّاس بل كان حكرا على المقربين والأتباع نظرًا لأهميّة هذه الوظيفة التي يتعلّق بها أمن الدّولَة الاقتصاديّ واستقرارها السّيَاسِيّ وتوسُّعها الجُغرَافِيّ.

-شروط توليتهم

لقد بالغ الخُلَفَاء في التّحري وتوخوا الدّقة في اختيار مَن يتولّى أمر البَريد ووضَعوا شروطا مفصّلة لذلكَ، منها الورع والثّقة والحكمة والعلم بالتضاريس ومعرفة المسالك. فقد ذكر ابن قدامة أنه ينبغي لصاحب البَريد «أنْ يَكونَ ثقة، أمّا في نفسه أو عند الخَليفَة القائم بالأمر في وقته، لأنَّ الدّيوانَ ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافي المتصفّح وإنما يحتاج إلى الثّقة المتحفظ « لأنَّ مهمّة صاحب البَريد تحتاج إلى من يؤتمن على أسرار الدّولَة، كما ينبغي أن تتوفر فيه شروط أخرى منها الفراسة والحدس العقلي والقدرة على فهم ما يحمله الكلام من أوجه، ليدرك ما يضمره الولاة والأعداء في أحاديثهم إليه وأنْ يَكونَ قادرا على الاستدلال العقلي واستعمال الحيلة والدهاء، ويشترط فيه أيضا معرفة لسان البلاد التي يرسل إليها حتى يمثّل الخِلَافَة أحسن تمثيل وأنْ يَكونَ مخلصًا للخليفة ومستعدًّا للتضحية بالنّفس في سبيل كتمان أسرار الدّولَة متى ظفر به العدو.

وتطلّبت المهامُّ التي ألقيت على كاهل البَريديّ أنْ يُتقن كتابةَ الرّسائل أيضًا وفنّ التّوقيعات، ويُحسن مُخاطبة الخُلَفَاء وعظماء الدّولَة، وأنْ يَكونَ على معرفة كاملة بالطرق والأنهار والتضاريس، والمسافات بين المدن وحواضر الدّول، وعليه أن يُحسن إدارة مَن يَعمل تحت يده من السّعاة والنّجّابين والبرّاجين، ويملك شيئاً من معرفة طبائع الحَمَام والخيول والبغال. حتى إنّ أبا القاسم عبيد الله المشهور بابن خرداذبه الذي كان يتولّى البَريدَ والخَبَر ببلاد الجَبَل ألّفَ كتاب «المسالك والممالك»، تحدّث فيه عن البَريد. وكتب القلقشنديُّ «صُبحَ الأعشى في صناعة الإنشا» وكتب عبد الحميد الكاتب «رسالة الكتّاب» وغيرهم من البَريديّين الذين ألّفوا كتبًا في الغرض.

وبلغ من اهتمام المُسلِمين أنّهم أسمَوا الباب الغربي لجامع دمشقَ بباب البَريد، وعلى السّوق المجاور له بسوق البَريد، ونظمَ في ذلك النّاظمون، وهذا القول لشاعر تشوّق لرؤية باب البَريد:

«تلاقتْ جفونٌ ما تَلاقَى قصيرةٌ
وليلُ مَشوقٍ بالغرامِ طويلُ
شديدٌ إلى بابِ البَريدِ حنينُهُ
وليسَ إلى بابِ البَريدِ سَبيلُ»[٢٣].

(٢٢) عبد المنعم ماجد؛ تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٠.

(٢٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٤١٣/١٤

ونـصّ قصيدة نَصر بن سـيّار التي حَذّرَ فيها الخَليفَـة الأُمَـويّ مروانَ بـنَ مُحَمَّد يوُثّـق ثقافةَ أصحابِ البَريد وإتقانَهم للرسائلِ المُشفّرة حيثُ قال:

«أرى تحتَ الرّماد وميضَ نارٍ

وأخشى أنْ يَكونَ لها ضرامُ»

وقد وظّف البَريدُ أيضا لنقل الرّسـائل والهدايا المتبادلة بين الـدّول، إلا أن قطع البَريد في ولاية مـن الولايات يعني التّمرّد والعصيان. لذلك نهض البَريد بوظائف هامة في الدّولَة

-وظائف مُؤَسَّسَة البَريد: الرّقابيّة والحَربيّة

لقـد تعـدَّدت وظائـف مُؤَسَّسَـة البَريـد فـي الدّولَة الإسـلامِيّة وارتبطت بالاستقرار السّيَاسِيّ للدولـة وبازدهارها الفكـريّ والاقتصاديّ وأمنها الاجتِمَاعِيّ وتوسّعها الجُغرَافِيّ غير أنّنا اختزلناها فـي وظيفتيـن: الوظيفـة الرّقابيـة والوظيفـة الحربيّة.

١-الوظيفة الرّقابيّة

كان لمُؤَسَّسَـة البَريـد دور ريادِيٌّ في توسّـع الدّولَـة الإسـلامِيّة الجُغرَافِـيّ، وفي اسـتقرارها السّيَاسِـيّ، وفي سلمها الاجتِمَاعِيّ، لذلك أفرد لها العَبَّاسـيّون أسـوة بالأُمَويّين ديواناً خَاصّاً وُسـم بديوان التّراسل وكذلك بديوان الخرائِط واعتمدوا عليـه فـي إدارة شـؤون دولتهم، وفـي الحفاظ على اسـتقرارها السّيَاسِـيّ الشّـامل، فاستخدمَ الخُلَفَـاء عُمَّال البَريد عيونًا علـى الولاة، يراقبون أحوالهـم وتصرفاتهم مع الرّعية وكيفية تحكمهم فـي المَوارد الماليّة للدّولـة ويرفعونها دوريًا إلى الخَليفَة. ولم يسـلم القُضاة من المُراقبة والتدخل في أحكامهم

وعدَّ الخَليفَة المنصور صاحبَ البَريد أهمّ ركنٍ فـي الدّولَة، قال في ذلك: «مـا كان أحوجَني إلى أنْ يَكـونَ على بابي أربعةُ نفرٍ لا يكون على بابي أعـفّ منهم، قيل له يا أمير المؤمنين مَن هم؟ قال هـم أركانُ المُلك ولا يصلحُ المُلـكُ إلا بهم كما أن السّرير لا يصلح إلا بأربعِ قوائم إنْ نقصتْ واحدة وَهَـى، أما أحدُهم فقاضٍ لا تأخـذه في الله لومة لائم والآخر صاحب شـرطةٍ ينصفُ الضعيف من القويّ والثّالث صاحبُ خَراج يَستقصي ولا يَظلم الرّعيـة فإنّي عن ظلمها في غنى والرّابع ثم عض على أصبعه السّبابة ثلاث مرات وهو يقول في كل مـرة آه آه قيل له ومن هو يا أميـر المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصّحة»[٢٤].

وذكـر المُؤَرّخون ومن بينهم صاحب المنتظم أنّ من مَهامّ البَريد اليوميّة تزويد الخَليفَة بأسعار السّـلع، وأحـكام القضاة، ومـا يردُ بيـتَ المال، يقـول: «وكان المنصور يشـتغلُ في صدرِ نهارهِ بالأمـرِ والنّهي والولايـاتِ والأطـرافِ والنّظر في الخَـراج والنّفقـاتِ ومصالح الرّعيـة، فإذا صلَّى العَصر جلسَ لأهل الحاجاتِ، فإذا صلّى العِشـاءَ نظرَ فـي ما ورَدَ عليه من كتب الثّغور والأطرافِ، وشاورَ سُـمَّاره، وكان البَريديّون يكتبون إليه كل يوم بسعرِ القمحِ والحبوبِ والإدام، وكل ما يَقضي بـه القاضـي في نواحيهـم، وما يَرِدُ بيـتَ المال، وكل حـدث، فإذا صلَّى المغـرب يكتبونَ إليه بما كان ذلك، وإذا نظر في كتبهم فإن رأى الأسـعار

(٢٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ، ج٩، ص٢٩٧..

على حالها أمســك، وإن تغيَّرَ شيءٌ منها كَتَبَ إلى العامل هناك وســأله عن العِلّــة، فإذا وَرَدَ الجواب تلطف حتى يعودَ ســعرُ ذلك البلد إلى حالِه، وإن شكَّ في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه في ذلك، وسألَ مَن بحضرتِه عن علمِه، فإن رآه أخطأ في شــيءٍ كتب إليــه يوبّخه ويلومُــه، فإذا مضى ثلثُ الليل قام إلى فراشــه، وانصرفَ سُمّاره، فإذا مضى الثّلث الباقي قام فأسبغَ الوضوء ووقفَ في محرابه حتى يطلع الفجر»الصّحة[٢٥].

لمُؤَسَّسَــة البَريد إذن الفضل في إلمامِ الخَليفَة المَنصــور بــكل أحــوال دولتِــه، يــردع القاضي الظالــم، ويوقفُ غلاءَ الأســعار، ويُعاقب المقصّر فــي عمله من عماله. اعتمــادا على صاحب البَريد الــذي يَحضــر مجالسَ القضــاء وينقــل للخَليفةِ حيثيــاتِ المحاكمــة، كمــا كان يراقــب أصحاب الشّــرطة، ليتأكــد مــن مــدى إخلاصهــم للدولة وتفانيهم في أداء واجباتهم. وهو ما بوّأ مُؤَسَّسَــة البَريد لتكونَ الرّكن الأهمّ في الدّولَة. بلْ تشــارك الخَليفَــة في العزلِ والتولية. وقــد عزل المنصورُ والــيَ حضرموتَ بعد أنْ أبلغــه صاحبُ البَريدِ أنَّ الوالي يُكثر من الخروج إلى الصّيد.

وكذلــك الخَليفَة الرّشــيد عزلَ القاضــي مُحَمَّد بن مســروق الكنــديّ الذي اتهمــه صاحب البَريد بالإبطاء في الجلوس بالناس وذلك بســبب رفضِه وساطةَ صاحبِ البَريد.

ومن الصّلاحيّات المَمنوحة إلى أصحاب البَريد مُراقبــةُ تصرّف الولاةِ في الأموالِ العامّة، حتى لو كانوا أبناءَ الخُلَفَاء.

فهارونُ الرّشــيد لم يســتثنِ الفضــلَ بنَ يحيى البرمكــي، وزيره الأول وموضــعَ ثقته من مراقبة أصحــابِ البَريــد الذيــن كلّفهم الخَليفَــة بمراقبةِ القادة والولاة والوزراء كافة.

«وممــا يُــروى أنّه وصل كتــابُ صاحــبِ البَريد بخراســان إلى الرّشــيد ويَحيى جالــسٌ بين يديه ومضمــونُ الكتاب أنّ الفضلَ بن يحيى متشــاغلٌ بالصيد، وإدمانِ اللذّات عن النّظر في أمر الرّعيّة، فلمّا قرأهُ الرّشــيد رمى به إلى يحيى وقال: يا أبتِ اقرأ هذا الكتاب، واكتــب إليه بما يردعه عن هذه، فكتــب يحيــى على ظهر كتــاب صاحــب البَريد: حفظــك اللــه يا بنــي وامتع بــك، قد انتهــى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التّشــاغل بالصيد ومداومــة اللذات عــن النّظر فــي أمــر الرّعية ما أنكره، فعاود ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه، وترك ما يشــينه لم يعرفــه أهل بلده إلا به والسلام»[٢٦].

أما المأمون فقد أمرَ بقتلِ والي خُراسانَ عندما أبلغه صاحبُ البَريد أنّ الوالي خَطَبَ يومَ الجُمعة ولم يدعُ للخليفة.

وامتدّ نفوذُ أصحابِ البَريد لتزكيةِ ولاةٍ بأعينِهم، واستجابة الخُلَفَاء لهم (تزكية والي إفريقية نصرِ بنِ حبيبٍ المهلبيّ من طرف صاحب البَريد).

واســتُخدمَ البَريــدُ أيضًا لنقــلِ الــولاة إلى مركز الخِلَافَــة أو وكلاء الدّولَــة، ومســؤوليها فــي

(٢٥) القلقشــندي: صبــح الأعــشى في صناعــة الإنشــاء، ص/٤١٣.

(٢٦) أبو زيد شــلبي: تاريخ الحضارة الإســلامية والفكر الإسلامي ص ١٣٩.

المقاطعـات البعيدة لما يُوفره البَريدُ من سـرعة في التّنقل متى تطلب الأمر ذلك.

ويُـروى أن معاويةَ بن أبي سـفيانَ لما اشـتدَّ به المـرضُ فكتب الى ابنه يزيدَ أدركني، وسـرج له البَريد، فخرج يزيد وهو يقول:

جاءَ البَريدُ بقرطاسٍ يَخبّ به

فأوجسَ القلبُ من قرطاسِه فزعا

قلنا لك الويل ماذا في كتابِكمُ

قالوا الخَليفَة أمسى مُثبتا وجعا

واسـتخدمه الخَليفَة العَبَّاسـيّ موسى الهادي (حكَمَ مـن ٧٨٥م إلـى ٧٨٦م) البَريدَ في رحلتِه من جرجـانَ إلى العاصمةِ بغداد بعد أنْ تلقّى نبأ وفاةِ والده.

غيـرَ أنّ اسـتخدامَ مَـوارد البَريـد مـن طرف رجـالِ الدّولَة في العهـد العَبَّاسـيّ كان خاضعًا لرقابـة مشـدّدة، وكان مطلوبًـا منهـم الحصول علـى تصريح خَاصّ لاسـتخدام البَريـد في نقل أشـيائِهم أو مؤنهـم. إذن يمكن القولُ إنّ سـلطةَ البَريد الرّقابيّة سلطة شاملة بسطتْ نفوذها على كلّ مكونات الدّولَة وشـتّى مجالاتها الحيوية مما جعلها قادرة علـى التّحكّم في مفاصل الدّولَة بل على التّحكّم في مصير الخُلَفَاء والدُّول باعتبارها الضامنَ الوحيد لاستقرار أركان الحكم أو زعزعته.

٢-الوظيفة الحربية

ارتبـطَ انهيـارُ الدّولَـةِ الأُمَويّة بانهيـار نظامِ البَريـد الذي أصبحَ في أواخـرِ العهد الأُمَويّ على حدّ عبارة أحدهم «لا يُشـدُّ له سـرجٌ ولا تُلجم له دابّة، فتمكّن العَبَّاسـيّون من إعدادِ العُدّة للحرب وحشد الأقاليم الخراسانية ضد الأُمويّين في غفلة منهم، لأنهم لم يقـدّروا الخطر المحدق بهم، وقد صـرّح بذلك أحد قادتهم بقولـه «زوال ملكنا في استتار الأخبَار عنّا».

واعتبرالعَبَّاسـيّون نظام البَريد من أهم أركان الدّولَة وبالغ الخَليفَة المنصور في عنايتِه بالبَريدِ ووظَّفـه لمواكبتِه للأحداث في كامل أرجاء الدّولَة ليل نهار، فقرن اطلاعه على أحداث النّهار بصلاة المغرب وأحداث الليل بصلاة الصّبح وهذا الاطلاع مكّنه من إحكام قبضتـه على دواليب الدّولَة رغم اتّساعها.

لذلـك «اتسـعت مَهامّ صاحب البَريـد في العصر العَبَّاسـيّ، ولم تقتصـر على نقل أوامـر الخُلَفَاء إلـى الولاة، وأخبَـار الولاة إلى الخُلَفَـاء، وأضافوا إلى مهامه الأساسـية مهمة موافاة الخَليفَة بكافة الأخبَار والحوادث التي يمده بها أعوانُه المنتشرون في أنحاء الأقاليم، أي أنه كانَ رقيباً ومُفتشاً وعَيناً للخليفة، يَرفع التّقاريرَ عـن أحوالِ الجُند والمال وأحـكام القُضـاة، وأسـعار الحاجيـات من قمح وحبوب ومأكولات وغيرها، فكان عمله يشبه نظام المُخابرات والشعبة السّيَاسِيّة، كما كانَ من جُملة أعماله أيضاً حفظُ الطّـرق وصيانتُها من القُطّاع والأعداء والجواسيس»[٢٧].

وكلّف البَريد بمهمة نقل أخبَار الحروب وتقدّم الجيوش للخليفة وأخبَـار الفتن الدّاخلية، وأيضا خبر وفاة الولاة وخبر عِصيانِهم حتى يتسـنّى له اتخاذُ القراراتِ المُناسبة لذلك.

ونظـرا لمعرفةِ صاحب البَريد الواسـعة بطرق

(٢٧) يُنظر: الطرطوشي: سراج الملوك ص٤٩.

المواصلات، ومواقع الموانئ والأنهار والجسور والجبال والهضاب كان الخَليفَة يستعين به أيام الحرب في رسم خطط الحرب، وسلوك أفضلِ الطّرق لمباغتةِ العدو، أو إنشاء كمين مناسب للتمكّن منه. وكان يعتمد أيضًا على أصحابِ البَريد في تأمين المسالكِ وتفقدِ أحوال السّككِ التي تسلكها الجيوش في طريقها إلى العدو قبل خروجها، فقد أقام هارون الرّشيد أثناء غزوه للروم، خطّا بريديًّا مباشرا مع والده الخَليفَة المهدي يُبلغه كل مستجدات الحرب ويتلقى منه الأخبَار المتعلقة بتحركات العدو وخططه الحربية وذلك بتفعيل مهمة بريد التّجار الجواسيس.

واستخدام البَريد الجوي المسمّى بجناح المُسلِمين أو الحَمَام الزّاجل لنقل الرّسائل العسكرية في كنف السّرّية المتناهية والسرعة الفائقة وخَاصّة منها الأخبَار التي تتعلق بجيوش العدو، أو طلب جيوش المُسلِمين للنجدة أثناء الحصار. وأقام المهدي خط بريد مباشرًا بينه وبين مكّة، لتتبع مجريات الأحداث في ذلك الثّغر الهام. ويؤكد ذلك قولُ صاحب البداية والنّهاية: «إنّه أمر بإقامة البَريد بين مكة والمدينة واليمن، ولم يفعل أحدٌ هذا قبل هذه السّنة»(١٦٠هـ).

ونقل الدّكتور العَدوان عن «المقريزي» في خططه «أنّ الحَمَام قد ساهم في إطلاع حكام المُسلِمين على كل ما يتجدّد في الثّغور وغيرها، فقد جرت العادة أن يطلع نواب المملكة السّلطان بما يتجدد عندهم على أيدي البَريديّة، وتارة على أجنحة الحَمَام، فتعود عليهم الأجوبة السّلطانية وعليها العلامة.

وفي عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م أرسل متولي «الإسكندرية» يخبر السّلطان بالأحداث التي تفجّرت بين المُسلِمين وتُجّار الفرنج، فأرسل السّلطان أوامره بطريق الحَمَام بالقضاء على الفتنة»[٢٨].

واستخدمت كذلك عربات البَريد لتعزيز الجيوش في مناطق الاضطراب والقلاقل، وتبعا لذلك كان أصحاب البَريد يتعرضون إلى الهجوم من طرف المتمردين على السّلطة باعتبارهم مصدرا أساسيا لاستقرار النّظام والانتقام من السّلطة أو إضعافها يتم عبر البَريديين، وفي المقابل غالبًا ما يصمد أصحاب البَريد ويتغلبون على المُتمردين، وينجحون في اعتقالهم واعتقال الفارّين وتسليمهم إلى السّلطة.

وقد أثبتت الأحداث التّاريخِيّة أن ضعف البَريد يعني انهيار الدّولَة وخير مثال على ذلك نكبة البرامكة وما حصل لخِلَافَة الرّشيد بعدهم قال الفضل بن مروان: «إن أمور البَريد والأخبَار في أيام الرّشيد كانت مهملة، وإن مسرورًا الخادم كان يتقلد البَريد والخرائط، وأن الرّشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة». ويقول المسعودي: «إن الرّشيد دفع خاتم الخِلَافَة بعد إيقاعه بهم (أي البرامكة) إلى علي بن يقطين، وغلب عليه الفضل بن الرّبيع وإسماعيل بن صبيح إلى أن مات واختلت أموره بعد البرامكة، وبان للناس

(٢٨) د. أحمد محمد العدوان، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، ص ١٢٧:

قبح تدبيره وسوء سياسته».[٢٩] كما استطاع البُوَيهيّون السّيطرة على الدّولَة بعد قطعهم للبريد وإخفاء أخبَارهم على الخَليفَة.

وبناء عليه نخلص إلى نتيجة مفادها أن استمرار الاتصال بين مركز الدّولَة وأطرافها المترامية يعني استمرار الولاء والطّاعة لها، وقطع الاتّصال عنها يعني التّمرد والعصيان وربّما إعداد العدة للهجوم والانتصار، وفي الحالتين يمثّل البَريد الفاعلَ الرّئيس.

الشبكة البَريديّة في الدّولَة الإسلامِيّة

أولت الحَضَارَة الإسلامِيّة البَريد عناية منذ صدر الاسلام، وتضاعفت عنايتها به عندما اتسعت رقعتها الجُغرَافِيّة أثناء الفتوحات، وأصبحت في حاجة ملحّة إلى إنشاء نظام بريدي يمكنها من ربط اتصال دائم بين مركز الخِلَافَة والولايات التّابعة لها أي بين الخَليفَة والولاة، فطوَّروا نظام البَريد تدريجيا وأصبح في القرن التّاسع للميلاد من أهمّ مؤسسات الدّولَة. وهذه المُؤَسَّسَة البَريديّة المتطورة تترجم ما وصلت إليه حضارة المُسلِمين من تقدُّم فكري وازدهار اقتصادي ورقي اجتِمَاعِيّ وتوسّع جُغرَافِيّ مما جعلها تغزو العالم وتكون الحلقة الأهمّ في تاريخ الفكر الإنساني.

ولمُؤَسَّسَة البَريد دورٌ هام في ذلك. إذ يؤكد لويس سيديو في حديثه عن عناصر الحَضَارَة التي أدخلها الأغالبة إلى إفريقية فضل البَريد في ذلك يقول: « لم يدّخر بنو الأغلب وسعاً في إنعاش ما يستلزمه كل بلد غني خصيب من التّجارة والصناعة والزراعة، فسهلوا الصّلات بين سكان الصّحراء وسكان السّاحل بما أوجدوه من المستودعات، وأنشأوا الطّرق، وسهروا على سلامة المواصلات، وأحدثوا نَظَارة عامة للبريد بين حدود المغرب ومصر، ثم أقاموا دوراً للصناعة في أهم المرافئ، فكان لهم أسطول قوي أضحوا به سادة البحر»[٣٠].

فكيف طوّر المسلمون نظام البَريد؟ وفيم تتمثّل التقنيّات والوسائل البَريديّة المُستَحدَثة لديهم؟

١-السكك: البَريد البري

لقد تبنّى المسلمون في صدر الإسلام النّسخة الجاهلية للبريد التي تميّزت بالبساطة واقتصر البَريد الدّاخلي فيها على سعاة القدم. وعندما توجه المسلمون بدعوتهم خارج الجزيرة العَرَبيّة احتاجوا إلى نظام بريديّ أكثر تطورا[٣١] وسرعةً من السّعاة، متأثرين في ذلك بالنظام البيزنطي للبريد ثم النّظام الفارسي.

(٢٩) كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي الجزء الأول صفحة ١٢٦ الموسوعة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٢٩ فبراير ٢٠١٦ نسخة محفوظة ٠٥ أبريل ٢٠١٦ على موقع واي باك مشين..

(٣٠) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية ص١٠٦.

(٣١) كان العرب القدماء، يقومون بنقش الرسائل بداية من قوالب الطين حتى اكتشاف الورق مرورا بالكتابة على الجلود بعد دبغها، وتوضع فى غلاف وترسل الى صاحبها، عن طريق شخص مخصص يركب الجمل أو الحصان لتوصيل الرسالة ويكون له منطقة محددة، ثم يتم حرق الرسالة لضمان سريتها، وكانت هذه الطريقة شائعة الاستخدام في مصر والصين.

فأنشـأوا السّكك التي يُعرِّفها ابنُ الطّقطقا في قولـه: «البَريد أن يُجعل خيـلٌ مُضمّرات في عدة أماكـن، فإذا وصـل صاحب الخبر المُسـرع إلى مـكان منهـا وقد تَعبَ فرسُـه؛ ركبَ غيره فرسًـا مُستريحًا، وكذلك يفعل في المكانِ الآخر والآخر، حتى يَصل بسرعة»[٣٢].

أدخـلَ عبد الملك بن مروان، على ديوان الخاتم الـذي اتّخذه معاويـةُ بنُ أبي سـفيان العديد من التّحسـينات؛ منهـا مـدّ أربعـة طـرق تربط بين القدس ودمشـق ومَسَـحَ الأرض، ووضـع حدودًا علـى كل مسـاحة، و «قد رُوعِـيَ أنْ تَكونَ طريق البَريد ممتـدة في الأرضين التي يكثرُ وجودُ الماءِ فيهـا، وتتوفَّر فيهـا الآبار، وفي مواضـعَ مأمونةٍ قليلة الرّمال»[٣٣].

وتوسّـعتْ شـبكةُ البَريد البرّي في عهده «زاد اتسـاع شـبكة البَريـد لتخـدم التّقـدُّم العمراني والاقتصادي الذي كان ينشده ووفَّر لها من الخيل والإبل العدد الكبير وأنشأ لها السّكك (المحطات) فـي كل أنحـاء الدّولَة وبلغ من أهميـة البَريد في عهـده أن حُمِـلَ على ظهـور دَوَابّه الفسيفسـاء (الفصّ المُذَهَّب) من القسـطنطينية إلى دمشق، حتـى صُفِّح منه حيطـان المسـجد الجامع بها، ومساجدُ بمكةَ والمدينةِ والقدس»[٣٤].

وبنـى عمـرُ بنُ عبد العزيز علـى طريق البَريد وسـكِكه الخانـات للمبيت، كما أنشـأ اسـطبلاتٍ لاستراحة الدَوَابّ وأقامَ أحواض السّقيا، ومخازنَ العلـف في كل المسـالك والطرق التـي يمرّ منها البَريـد. وفي عهده «كان لا يحمـل على البَريد إلاَّ فـي حاجة المُسـلِمين؛ لأنَّ البَريـد كان مخصَّصًا لخدمـة الدّولَـة، وكتبَ إلـى عاملٍ له يشـتري له عسلاً، ولا يُسخَّرُ فِيه شيئًا، وإن عاملَه حَمَلَه على مَركبـة من البَريد، فلمَّا أتى قـال: على ما حمله؟ قالوا: على البَريد. فأمر بذلك العسل، فبِيعَ، وجَعَل ثمنَه في بيت مال المُسلِمين، وقال: أفسدتَ علينا عسلك»[٣٥].

وفي عهد الخَليفَة المتوكل بلغَ عدد سِكك البَريد ٩٣٠ سِـكة امتدتْ في أنحـاءِ الدّولَة الإسـلامِيّة، وأنفـق عليها في سـنة واحدة ١٦٠ ألـف دينار. وكان عـدد السّـكك قابل للتطور حسـب الحاجة لاسـيّما أثناء الحملات العسـكرية. إذ يقع إنشـاء خـط بريدي جديد يصل مركـز الخِلَافَة بالجيش المتقدم. وهو ما يـدلّ على أهمية البَريد في ربط مركـز الدّولَـة بولاياتِها كافة، وفـي الحفاظ على أمنهـا واسـتقرارها وفي توسّـعها ودعـم قوّتها ونفوذها.

وتبعـا لذلـك تعددت وسـائل البَريد واختلفت تسـميات الأعوان باختـلاف مَهامّهـم فنجدُ بريدَ السّعاة أو بريدَ الرّجّالة وهم رجالُ بريدٍ يتّصفون بالقوة الجسـديّة وخفّـة الحركة ويخضعون قبل توظيفهم الى منافسة في قطع المسافات البعيدة

(٣٢) ابـن الطقطقـي، الفخـري في الآداب السـلطانية ص١٠٦.

(٣٣) جـواد علي: المفصـل في تاريخ العرب قبل الإسـلام ٩/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٣٤) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٤١٣.

(٣٥) يُنظر: وأبو يوسـف يعقوب بن سـفيان الفسـوي : المعرفة والتاريخ ١/ ٣٣٧.

يفوز فيها الأسـرع، ونجد النّجّابيـن، وهم الذين يعتمـدون الجمال فـي نقل البَريـد وتحولوا بعد ذلـك الى التّجّار الجواسـيس وحـل محلّهم بريد الخيالة ويطلق عليه أيضا اسـم «الولاق» لسرعة عدوها فهي تستطيع قطع مسافة أربعة أميال ثم تغيّـر بخيول أخرى في محطـات البَريد. ويصل قطار الخيول في حالة الحرب إلى خمسـين دابة يسـتخدم للنجـدات العسـكرية ونقـل الجرحى والمعدات الحربية.

واحتفـظ نظـام البَريد البريّ بشـبكة واسـعة من محطات التّرحيل، التي تضم منشـآت جديدة ومسـاكن ومـوارد أخرى لسـعاة البَريـد. ووفقًا للجُغرَافِيّ العَبَّاسـيّ ابن خرداذبة[٣٦]، أن شـبكة البَريـد تطـورت فـي منتصـف القـرن التّاسـع الميـلادي لتصبـح شـبكة مترابطة مـن الطّرق والمحطات ولها مسـيّرون يتكونون من رؤسـاء بريـد، ومُديـري بريـد وأعـوان اختلفـت رُتبُهم باختـلاف مهمّاتهم، وكانـت مخصصاتهم تُدفعُ لهم مـن مـوارد الدّولَة، كان متوسـط المسـافة بيـن محطتي بريـد، تمتدّ مـن اثنين إلـى أربعة فراسـخ (أيّ من ستة إلى اثني عشر ميلاً)، ولكنّ المُسلِمين لم يكتفوا بهذه الشّبكة البرية بل بحثوا عن وسيلة أسرع لوصول الخبر فاستخدموا تقنيّة الحَمَام الزّاجل واسـتحدثوا له الأبراجَ للاستراحةِ والتدريب وضمانِ سلامة وصول الرّسائل.

٢-الأبراج:البَريد المجنّح

البَريـدُ المُجنّـح تقنيّـةٌ اسـتخدمها اليونـان ثم الرّومان، واسـتخدمها العَبَّاسيّون، في أغراضِهم العسـكرية، وعـرف أيضًا بـــ «الحَمَـام الزّاجل» و«الحَمَام التّراسلي» و «جناح المُسلِمين»، وسُمّيّ أيضًـا «البَريد الجـوي» على غـرار البَريد البري (بريد السّعاة والخيّالة) وقد أفرد المسلمون لهذا النّـوع مـن البَريد ديوانـاً خَاصّاً بـه، وأُلّفت فيه الكتب.

واعتنى خُلَفَاء بني العَبَّاس بهذا الحَمَام لسرعة نقله الأخبَار، وتنافسَ في أثمانِه رؤسـاءُ أشـراف القـوم في العـراق حتى بلـغَ ثمنُ الطّائـرِ منها سبعمائة دينار.

ولعـب الحَمَـام الزّاجـل دورًا هامًّـا في صراع القرامطـة مـع الدّولَـة العَبَّاسـيّة إذ اسـتخدم القرمطـيُّ الحَمَـام الزّاجلَ وسـيلة لجلب الأخبَار من أنصاره وجواسيسِه، وكان حينَ تأتيه الأخبَارُ ينطـق بهـا قبل أن يعـرف بها النّـاس من حوله مُدّعيـا علم الغَيب فيَعتقدون أنه يعلم الغيب. كما سـاد اعتقادٌ بيـن العامة أنّ المنصـور كان يملكُ مرآة سحرية تُريه صورة مُحدثة لشؤون العالم.

«وقد اهتم الفاطميّون والإخشـيديّون بهذا النّوع حتى أفردوا له ديوانًا، ووضعوا أسـماءَ وأنسـابَ الحَمَـام في جرائـدَ خَاصّة ... ولتمييـزه جُعلَ له من الذهب خلاخيلُ في أرجله، وألواحٌ في أعناقه، وقد كان المسـلمون يَسـتعملون أثنـاء الحروب اصطلاحاً أشبه بالشيفرة فيما يحمله الحَمَام من أخبَار، حيث كانـت تكتب على ورق خفيف يعلق بأجنحتـه، وقد كثـرت أبراج الحَمَـام أو مطاراته في عهـد المماليك، وكانت «القاهرة» مركزه»[٣٧]،

(٣٦) ابـن خرداذبـة. مـؤرخ وجغـرافي اشـتهر بكتابـه الجغرافي كتاب المسالك والممالك، الذي وصف فيه المسافات بين البلدان وقد عمل في خدمة الخليفة العباسي المأمون.

(٣٧) عبـد المنعـم ماجد.تاريـخ الحضارة الإسـلامية في العصور الوسطى، ص٣٧.

وكانت الرّسائل تصل بواسطة الحَمَام الزّاجل من الرَّقّة والموصل إلى بغدادَ في يوم وليلة.

وذكـر الدّكتور «القوصي» أن الرّسـائل كانت تكتـب بصيغـة مُقتضبـة كالتـي تُسـتعمل في البرقيات فـي وقتنا الحاضر، وتشـدُّ تحت جناح الطّائـر أو ذيلـه، وأنـه كان يُكتـبُ صورتان من الرّسـالة تُرسـلان مع طائرين يُطلقان في أوقات متباعدة، حتى إذا ضلَّ أحدُهما أو قُتلَ أو افترسته الجوارحُ، أمكنَ الاعتمادُ على وصولِ الآخر»[٣٨].

ويتـمّ تدريبُ حمام «البَريد المُجنح» أو الحَمَام الرّسـائلي أو الزّاجـل وفق أسـاليب يُراعى فيها الشّروط الجسديّة التي ذكرها الجاحظ في كتابه (الحيوان) منها خِفّة النّهوض في الارتفاع وثباتُ النّظـر وعدم الاضطـرابِ أثنـاءَ الطّيران وشـدة الحذر وسرعة التّلفت وغيرها من الشّروط. وكان المسلمون يرسلون الرّسالة الواحدة مع حمامتين لضمانِ وصولها والرّسالة تثبّتُ تحت جناح الطّير أو ذيله بطريقة محكمة.

«وكان حمـام البَريد السّـلطاني يميّـز بعلامات خَاصّـة كبصمِ منقاره ببصمـات خَاصّة أو قصّ ريشـه بطرق معروفة فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولّى السّلطان قطعها بنفسه»[٣٩] .

وهذه الرّسـائل «تُكْتَبُ على ورق خفيف -يُسَمَّى بطائـق أو ورق الطّيـر- فـي صيغـة مختصرة، وبخطٍّ دقيق يُعْرَفُ بخـطِّ الغبار؛ لأنه مثل ذَرَّات الغبار، وبلُغَةٍ أشـبه بالشـفرة، تُعَلَّقُ تحت جناح الحَمَـام لحفظها من المطـر»[٤٠]. ويكاد يقتصر استخدامها على فترات الحروب.

ظولـم تخلُ قلعةٌ من قلاعِ المُسـلِمين من برج للحَمام التّراسـلي، يُقيم عليه بَـرّاجٌ مُهمته توفير الاسـتراحةِ والأكل والشـرب والعنايـة الصّحّيـة للحمـام. وتتضمّـن هذه الأبـراج مراكـز لتكاثر الحَمَـام وتدريبهـا. ونظـرا للتوسّـع الجُغرَافِـيّ للدولة وكثرة الأعداء والأطماع وكثرة الفتن وكثرة الحـروب، تطلّب الأمـرُ البحثَ عـن تقنيّة جديدة أكثر سرعة من الحَمَام الزّاجل في إيصال الأخبَار فاستحدثوا تقنيّة المناور.

٣-المناور[٤١] .

لم يكتف المسـلمون بالحَمَـام الزّاجل في نقل رسـائلهم بل بحثوا عن تقنيّات أخرى أسرع منه

(٣٨) د: عطية القوصي.؛ الحضارة الإسلامية، ص٣٧ .

(٣٩) Poole a Histo(ص)y of Egypt in the Middle Age ٢٤٦-Stanley lane- انظـر كتاب الظاهر بيبرس وحضـارة مـصر في عهـده، محمد جمـال الديـن سرور، ص١٦٥-١٦٧.

(٤٠) كمـال عناني إسـماعيل: دراسـات في تاريخ النظم الإسلامية ص١٠٧، ١٠٨.

(٤١) القلقشـندي؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشـاء، ج١، ص ١٦٣.«أمـا المناور فسـيأتي أنه في الزمـن المتقدّم عند وقـوع الحروب بـين التتار وأهـل هذه المملكـة، كان بين الفرات بآخر الممالك الشـامية وإلى قريـب من بلبيس من أعمال الديار المصرية أمكنة مرتّبة برؤوس جبال عوالٍ، بها أقوامٌ مُقيمون فيها، لهم رزقٌ على السـلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عـدوّ من بلاد التتار، واتّصل ذلك بمـن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال فإنْ كان ذلك في الليل أوقـدت النار بالمكان المقارب للفرات من رؤوس تلك الجبـال فينظره مَن بَعده، فيوقـدُ النارَ فينظره مَنْ بَعده، فيوقـدُ النـارَ وهكذا حتّـى ينتهي الوقـود إلى المكان الذي بالقـرب من بلبيسَ في يوم أو بعض يوم، فيرسـلُ بطاقتَه عـلى أجنحةِ الحَمامِ بالإعلامِ بذلك فيعلمُ أنه قد تحرّك عدوّ في الحملـة فيؤخذ في التأهّـب له حتّى تصل الـبُرُدُ بالخبر مفصّلا».

فكانت تقنيّة المناور أو المنائر، مهمّتها حراسة السّواحل من خطر العدوّ البحري لذلك تقام المناور على طول السّواحل البحريّة. وقد شيّدت في شكل أبراج على المرتفعات العالية واعتمدت في نقلها للأخبَار الإشارات الضوئية المتفق عليها من قبل المنوّرين مسبقا.فمتى اكتشفوا عدوا مقبلا من البحر أشعلوا النّار على قمم المناور فينتقل الخبر بسرعة من منظرة إلى أخرى حتى يبلغ المكان المنشود.

«استعملَ المسلمون في المُراسلة طريقة أسرع من الحَمَام وذلك من خلال بناء المناظر أو المنائر، وهي أبراجٌ عالية على المرتفعات تنقل الإشارات عليها بإشعال النّار كوسيلة من وسائل المراسلة، استخدم ذلك في مراحل التّاريخ الإسلامِيّ»[٤٢].

وقد عرّفها القلقشندي بقوله «هي مواضع رفع النّار في الليل والدُّخَان في النّهار، وتارة تكون على رؤوس الجبال، وتارة تكون في أبنية عالية، ومواضعها معروفة» تَعَرَّف بها أَكْثَرُ السّفَّارة، وهي من أقصى ثغور الإسلام كإلبيرة والرّحبة، وإلى حضرة السّلطان بقلعة الجبل، حتى إن المتجدِّدَ[٤٣]بالفرات إن كان بُكْرَة عُلِمَ به عِشَاء، وإن كان عِشَاء عُلِمَ به بُكْرَة، ولِمَا يُرْفَعُ من هذه النّيران أو يُدَخَّن من هذا الدّخان أدلَّةٌ يُعْرَفُ بها اختلافُ حالات رؤية العدُوِّ والمُخْبَرُ به باختلاف حالاتها، تارة في العدد، وتارة في غير ذلك»[٤٤].

(٤٢) عبد المنعم ماجد؛ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص١٣.

(٤٣) المتجدّد: المتوضئ.

(٤٤) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٤٤٥.

واستخدم الحجاج بن يوسف هذه التقنيّة بينه وبين قزوينَ فإذا دخّن أهلُ قزوينَ نهارا دخّنت المناظرُ الواحدةُ تلوَ الأخرى حتى تصلَ إلى واسطٍ وإذا أشعلوا النّار ليلًا أشعلتْ المَناظر، وبذلك يصل الخبرُ بأقصى سرعة. وأحسنَ استخدامَها المسلمون في القرن الثّالث فربطوا الإسكندريّة بالساحلِ الافريقيّ الشّماليّ وكانت الرّسائلُ تصلُها من سبتةَ في ليلةٍ واحدة ومن طرابلسَ في ثلاث ساعات.

ويقول عبد المنعم ماجد في ذلك: «استعمل المسلمون في المراسلة طريقة أسرعَ من الحَمَام وذلك من خلال بناء المناظر أو المنائر، وهي أبراج عالية على المرتفعات تنقلُ الإشارات عليها بإشعال النّار كوسيلة من وسائل المراسلة، استخدم ذلك في مراحل التّاريخ الإسلامِيّ[٤٥].

وخصّص القلقشنديّ لهذه المناور أمرا ختمه بقوله: «.. إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبَار إلى الغاية القصوى، وذلك أن البَريد يأتي من سرعةِ الخبر بما يأتي به غيره، والحَمَام يأتي من الخبر بما هو أسرع من البَريد، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحَمَام، وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة»[٤٦].

ومن هنا فإن البَريد في عصر الدّولَة الإسلامِيّة

(٤٥) عبد المنعم ماجد؛ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص١٣.

(٤٦) القلقشندي؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الفصل الرابع، الامر الحادي عشر، نظره في أمر المناور والمحرقات، الطبعة العلمية، المكتبة الشاملة.

كان من الأهمية بمكان، حيث كان الخُلَفَاء والأمراء والولاة يعتمدون عليه وبشدة في تدبير شؤون الدّولَة. «. فكان الخُلَفَاء يَعُدُّون عمال البَريد عونًا لهم على الإشراف على أمور دولتهم، وبواسطتهم كانوا يقفون على أعمال ولاتهم وسائر رجال دولتهم.لذلك سعوا دائما إلى تطوير تقنيّات هذا الجهاز وفقا لاحتياجاتهم.ولمّا احتاجوا إلى تقنيّة سريعة تمكّنهم من نجدة المحاربين بمدّهم بالجيوش والعتاد ومن نقل الجرحى لإسعافهم صنعوا تقنيّة الجمّازات.

٤-الجمّازات[٤٧] والفيوج:[٤٨]

أدخل بنو بويهٍ طريقة جديدة في نقل البَريد تسمى الجمّازات وهي أشبه بالعَرَبات التي تجرُّها خيولٌ عديدة وسريعة «وقد اسْتُخْدِمَتْ لهذا الغرض أفضلُ أنواع الخيول المعروفة باسم الخيل الشّهارة، والإبل النّجب، التي كانت أسرع من الخيل وأصبر على السّير»[٤٩].

وكان يركبها عمال البَريد ورجال الحرب الذين يتطلب عملهم السّرعة. وقد رتَّبَ علي بن عيسى الجمّازاتِ بين مصرَ وبغدادَ لتبلغَه الأخبَار كلَّ يوم، وحين هدَّدَ الفاطميون مصر وطمعوا في فتحها، أرسل الخَليفَة العَبَّاسيّ المُقتدر جيشا يقوده مؤنس الخادم سنة ٣٠٢هـ واعتمد في نقلهم على الجمّازات.

وتحدّث عبد المنعم ماجد عن ذلك في كتابه تاريخ الحَضَارَة الإسلامِيّة قال: «وبعدها عدل الحكام عن استخدام الخيول في البَريد إلى استخدام الجمازات. وعندما أراد ابن العميد أن يلحق بأميره في فارس سنة ٣٦٤هـ اتخذ الجمازات لأنها أسرع» وفي أثناء الحرب كان ينقل بالجمازات «وهي شبه محفة على عجلة تجرها الخيول السّريعة»[٥٠].

وأحدث السّلطان معز الدّين البُوَيهيّ نظام الفيوج والمقصود به السّعاة وأقام معسكرات تدريب لهم وفتح المنافسة في ذلك لعامة النّاس وأغراهم بجرايات هامة فتهافت عليها من الفقراء كثير من الشّبان. واستخدمها السّلطان في التّواصل مع أخيه ركن الدّولَة. و«قد امتاز من هؤلاء السّعاة اثنان كان كل منهما يقطع ما يزيد على الأربعين فرسخا من مطلع الشّمس إلى مغربها، وقد ذكرهما المُؤَرّخون وهما فضل ومرعوش وكان أحدهما ساعي السّنة والآخر ساعي الشّيعة»[٥١].

«وكان هذا الدّيوان من صلاحياته الإشراف على محطات البَريد التي تسمى سكك البَريد ويسكن فيها (الفيوج) وهي عبارة عن رباط أو قبة أو

(٤٧) لسان العرب؛ جمز - يجمز ، جمزا وجمزى.
١- جمز الفرس : قارب العدو في سيره. ٢- جمز : أسرع.
٣- جمز في الأرض : ذهب فيها. ٤- جمز به : استهزأ به.
(٤٨) لسان العرب؛ ـ فَاجَ النَّهارُ: بَرَدَ.
ـ أفاجَ: أَسْرَعَ، وعَدا، وأَرْسَلَ الإِبِلَ على الحَوْضِ قِطْعَةً قِطْعَةً.
ـ فائجَةُ: مُتَّسَعُ ما بَيْنَ كُلِّ مُرْتَفِعينِ، والجماعةُ.
(٤٩) كمال عناني إسماعيل: دراسات في تاريخ النظم الإسلامية ص ١٠٦.

(٥٠) عبد المنعم ماجد؛ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص١٠.
(٥١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج١، ص.٤١٢

بيـت، وكان ينفـق على الـدَوَابّ ورجـال البَريد ميزانيـة خَاصّة، وقد حـوى ديـوان البَريد أدلَّة للمسـافرين وهـي عبـارة عن أسـماء للمحطات والمسـافات، يهتدي بهـا المسـافرون والتجّار والحجّـاج، واعتبـرت هذه من الأسـس التي قام عليها علم الجُغرَافِيّا أو علم التّقاويم»[٥٢].

وتشـير الدّراسـات التّاريخِيّـة إلـى أنّ الأُمَويّين اعتمـدوا علـى البَريد البحـريّ والنّهريّ في نقل رسائلهم أسوة بنظام البَريد البيزنطي وتواصل هـذا التّقليـد بوتيرة أقـل من التقنيّـات الأخرى المذكورة سلفا.

الخاتمة

وفـي الختام نخلص إلى الإقرار بأن مُؤَسَّسَـة البَريد نهضـتْ بعدة وظائف حيويـة في الدّولَة الإسـلامِيّة، منها ربط أطـراف الدّولَة بمركزها، وتمكيـن الخُلَفَـاء والسـلاطين مـن مواكبة كل الاحداث المسـتجدة في الولايات جميعها وكذلك سـيطرتهم المطلقـة علـى الـولّاة وتوحيدهـم للسياسـة القضائيـة للدولة في جميـع مناطقها الجُغرَافِيّـة الممتـدة، إضافة إلـى توظيف بريد التّجار في التّجسّس على العدو، ورصدِ تحركاتِه.

وقـد سـاهم البَريـد أيضـا فـي دعـم القـوّة الاقتصاديّـة للدولـة بتأمين الأنشـطة التّجارية ونقـل أمـوال الجبايـة مـن الولايات إلـى مركز الحكم. ويؤكّد ذلك الصّاحب علاء الدّين في قوله: «ومن جملة الأشـياء وَضْعُهـم البَريد بكل مكان؛ طلبًا لحفـظ الأموال، وسـرعةِ وصـول الأخبَار ومتجدّدَات الأحوال»[٥٣].

كما اسـتفاد من نظام البَريد ومن بناه التّحتية المتمثّلة في مد السّـكك وتأمين الطّرق إلى جانب النّشـاط التّجاري، الحركة العلميّة التي سـاهمت بإنتاجها الفكريّ فـي ذلك العصر في بناء الفكر الانسـاني بل لعلّها الحلقة الأهمّ على الاطلاق في هذا البناء.

فبيـن الدّعاية والتخويف، والجِدّيَّة في العمل اسـتطاعت النّظم البَريديّة أن تسـاهم في تكوّن دولٍ إسـلامِيّة على مسـاحات جُغرَافِيّة واسـعة، واستطاعت أيضًا أن تحافظ على تماسك وحدتِها، وعلى استقامة ولّاتها وقضاتها، إضافة إلى وأدها للثورات قبـل وقوعها، والقضاء علـى المتمرّدين والمارقين على سياسـة الدّولَة حفاظا على السّلم الاجتِمَاعِـيّ. كما كان لها دور رئيس في التّوسّـع الجُغرَافِيّ للدولة الإسلامِيّة والانتصار على الأعداء. وهكـذا تكـون مُؤَسَّسَـة البَريـد قـد واكبـت في تطوّر ها واسـتحداث تقنيّاتها ووسائلها، التّطور الحَضَارَي للدولة الإسـلامِيّة علـى امتداد ما يزيد على تسعة قرون، ومثلت أهمّ ركن في الدّولَة وفق ما أقرّ به الخَليفَة المنصور.

(٥٢) عبـد المنعـم ماجد؛ تاريـخ الحضارة الإسـلامية في العصور الوسطى ص٧.

(٥٣) الصاحب؛ علاء الدين؛ الفخري في الآداب السلطانية، ص١٠١-١٠٢.

المصادر والمراجع

- ابن خلدون؛ (عبد الرحمن)، المقدّمة، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٤م.
- ابن منظور؛ (محمد الإفريقي المصري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت،١٤١٤هـ.
- ابن دريد؛ (أبو بكر محمد بن الحسن)، معجم الجمهرة، دار العلم للملايين،١٩٨٧م.
- ابن الطقطقى؛ (الفخري)، في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مكتبة نور،٢٠٢٣م.
- الأمير الشهابي؛ (مصطفى)، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، ط٢، دمشق، ١٩٥٥م.
- البابا؛ (مسعود)، ما أخذه العرب من اللغات الأخرى، مجلّة القادسيّة في الآداب والعلوم النبوية، المجلّد الرابع، العدد ١/ ٢٠٠٥م.
- أبو زيد ؛ (شلبي)، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مكتبة نور، ٢٠٠٠م.
- التهاوني؛ كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، القاهرة، ١٩٦٣م.
- التوحيدي؛ (أبو حيان)، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٣٢٤هـ.
- القلا؛ (إبراهيم علي السيّد)، نظم الحضارة الإسلامية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع،٢٠٠٧م.
- القلقشندي؛ (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتاب المصرية، ١٩٢٢م.
- الجاحظ؛ (أبو عثمان)، البيان والتبيين،ج١، مطبعة دار الفكر، ١٩٦٨م.
- حميدو الله ؛ (محمد)، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، ط٣، باريس، ١٣٨٧ هـ.
- الفراهيدي؛ (الخليل بن أخمد)، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، لبنان،١٩٨٧م.
-الرازي؛ (محمد بن أبي بكر)، مختار الصحاح، المكتبة العصرية – مكتبة ماي، لبنان، ٢٠١٧م.
- الزمخشري؛ (محمود بن عمر)، الفائق في غريب الحديث، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ٢٠١٧م.
-السيوطي؛ (جلال الدين)، المزهرفي علوم اللغة العربية، ١، شرح: محمد جاد المولى وآخرين، مطبعة البابا الحلبي، مصر،١٩٨٥م .
- الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، ١٩٧١م.
- الطرطوشي؛ سراج الملوك،، مطبعة السعادة مصر، ١٨٧٣م.
- عبد المنعم ؛ (ماجد)، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة نور،١٩٧٢م.
- عمر؛ (أحمد مختار)، محاضرات في علم اللغة الحديث، عالم الكتب، ط١ القاهرة، ١٩٩٥م،.
- كمال ؛ (عناني إسماعيل)، دراسات في تاريخ النظم الإسلامية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر المحقق، دون تاريخ.
-مجدلاوي؛ (فاروق)،الإدارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،نوفمبر،٢٠٠٨م.
-ميتز؛ (ادم)، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ترجمة محمد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م.
-Encyclopédie des postes, télégraphes ,et téléphones, volumes, romacaldi ٢, ١٩٥٧.
-The Caliphate | Thomas W. Arnold – Taylor & Francis eBooks.